

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

وصل الفات

أرسلت حكومة الولايات المتحدة البكاشي ريد إلى جزيرة كوبا لينقص سبب وباء الحمى الصفراء . وكانت الحرب الأسبانية انتهت في كوبا . فأعلن البكاشي أن الحرب قائمة ضد عدو جديد هو الحمى الصفراء . وطلب متطوعين ليحرب فيهم عض البعوض ليعلم هل تنقل الحمى به . فتطوع لازار . وهو صياد مكروب متدرب ، وتطوع كارول وكان جراحاً ساعداً في الجيش

— ٣ —

واستدعى رجال الحكم ريد إلى واشنطن ليؤدى تقريره عن أعمال جرت في الحرب الأسبانية . فلما جاءت الدعوة أصدر أوامره مفصلة إلى كارول ولazar وأجرئني . وكانت أوامر سرية ، وكانت غاية في التطرف والوحشية إذا أنت قرنتها بطبع ريد المعتدل الهادئ — أوامر إذناية لا ترضاها الذم ، وهي إلى جانب هذا خروج على النظام العسكري ، فإكان لدى ريد إذن من رؤسائه في الجيش بإصدارها . ورحل ريد إلى واشنطن . وقام لازار وكارول بمدعان بأوامره فيركبان خطة غاية في الجرأة لم يركبها قبلهما من صياد المكروب أحد . أما لازار ، وقد كنت بالأمس تقرأ في عينه معنى الفناء ووجه الموت ، فقد صرت اليوم تقرأ فيها معنى العزم والتلف على البحث . وأما كارول فقد كان جندياً بطبعه فلم يأبه عمره بمجالس التأديب العسكرية ولم يحفل قط بالموت ، وقد كان في المكروب صياداً طويلاً الحبل طويلاً الباع

بدأ لازار خطته . فحمل معه في زجاجات تلك البعوضات التي قفّسها فخرجت من البيض تحمل على أظفارها أظلاماً من فضة وأخذ يسير بها بين سرائر المرضى وقد اصفرّت وجوههم كورق

الخريف ، واحمرت أعينهم بالدم القاني ، وهذّوا في القول وحق عليهم الفناء . وفتح زجاجاته على جلود المرضى ، فأخذت البعوضات تمتص من دماهم حتى إذا امتلأت سدّ الزجاجات عليها ، وحملها إلى منازل من الزجاج أعدت لها ، وأدخل فيها إلى البعوض أطباقاً صغيرة من الماء ومن السكر . وفي هذه المنازل هضمت أنثيات البعوض هذه غذاءها من الدم المحموم ، وطأنت قليلاً ، ثم سكنت في انتظار التجربة

وتذكر لازار ما قاله ريد له : « يجب ألا تغفل عن حمى الملاريا ، فلعل بينها وبين هذه الحمى الصفراء شهماً قريباً ، ففي حمى الملاريا لا يكون البعوض خطراً على الناس إلا بعد أسبوعين أو ثلاثة ، قلل الحال في هذه مثله في تلك »

ولكن أين الصبر من لازار ، وأين منه صبر أيام بيلة صبر الأسبوعين أو الثلاثة ! فجاء بسبمة متطوعين لا أدري كيف جاء بهم ، ولا أدري ما اسمهم ، لأن أسماءهم على ما أعلم أسدل عليها الستار عمداً ، لأن التجربة أريد إجراؤها في خفاء كالليل البهيم . وقام لازار على هؤلاء السبعة — ولعلهم أسكرهم أو لعلهم خدرهم — فأستقى البعوض من دماهم ، وهذا البعوض الذي استقى منذ أيام قلائل من دم مرضى أصبحوا في هذه الساعة في عداد الأموات وأأسفاه للآزار ! فقد جاءت النتيجة بغير ما ارتجى ، فقلل السبعة الرجال على أصح حال ولم تأتهم العجسى . فاكفأ على عقبيه خاسراً نادماً

خسر لازار ، وبقي كارول لم يجرب بعد حفظه . وكارول هو الرجل الذي قضى سنين عون ريد الأول ، وكان دخل الجيش أول ما دخل جندياً بسيطاً ، ثم صار أمباشي وجاويش سنوات عديدة تعلم فيها الطاعة حتى صارت من جبلته . وكان رئيسه ريد قال : « جربوا البعوض » . وكان رئيسه ريد ارتأى أن الشيخ المافون فينثلي لم يقل لغوا عندما اتهم البعوض . فلزم كارول أن يقول ما قال ريد وأن يرى ما ارتآه . أما رأيه هو فتأوى في حكم الجيش ومألوفه . ألم يقل لهم البكاشي ريد عند رحيله « جربوا البعوض » !

فجاء كارول إلى لازار وهو في يأسه يذكره ، قال : « هاأنذا بين يديك متأهب لا تريد » . وسأله أن يخرج إليه أخطر بعوضة

هي التي عضت كارول ، والثلاث الأخريات عضت ستة رجال في درجة من المرض معتدلة وأربعة رجال كانوا في أسوأ حالة من الحمى ورجلين ماتا بها . وحظي هذا الجندي بالشفاء كما حظي كارول

إذن فالتجارب جاءت بخير ما يُرجى . نعم لقد عضّ البعوض ثمانية رجال فلم يصيبهم سوء ، ولكنه عض كارول وعض « س . ص » ونِسم الخزيين الفيينين كانا في هذا التجريب فأصابتهما الحمى ، وكاد قلب كارول أن يقف ، وتماثل الاثنان للشفاء ؛ وكان كارول متنبطاً يكتب إلى رئيسه ريد وينتظر اليوم الذي يعود فيه ليطلعه على سجل التجارب زاهياً نفورا

ولم يشك في هذه التجارب أحدٌ إلا لازار ، فداخله في هاتين الاصابتين شيء من الريبة ، لأنه كان مجرباً متقناً دقيقاً حذراً في تجربيه ؛ وكان يرى أنه إذا قام بتجربة وجب عليه أن يتحكم في ظروفها ويضبطها غاية الضبط حتى لا يتسرب إليها الخطأ ، شأن البَحَّانة القح . حدث لازار نفسه قال : « ليس من الكرم التشكك في أمر هاتين التجربتين بعد ما أبدى فيهما كارول و « س . ص » من التضحية والجراءة ما أبدى ، ولكن كلا الرجلين تمرض للاصابة قبل التجربة وذهبا حيث توجد الحمى مرة أو مرتين قبل أن يصابا بها فعلا ، فليست التجربة بالغة حد السكال ، فن يدريني أن بعوض لا غيره هو الذي أعطاهم الحمى تشكك لازار ، ولكن ما تشكك جندي أول واجبه إطاعة الأمر ؟ وإذن فقد أخذ يجرى على عادته فيذهب عصر كل يوم إلى امرأة الرضى في تلك الحجلات ذات الرائحة القريبة الضعيفة المهددة ، وإذن فقد استمر يقلب زججات اختباره بما فيها من البعوض على أذرع رجال حمر الوجوه محمومين ، ويجعل البعوض يمتص من دماهم حتى يروى . وجاء اليوم الثالث عشر من سبتمبر ، فكان يوماً على لازار مشؤوماً ، إذ بينما هو يأذن للبعوض في الزجاج أن يشرب من دم الرضى ، حطت من الجو على ظاهر كفه بعوضة تالئة ، فتركها تشرب من دمه وقال : « دعها تشرب فأظنها من البعوض الذي يسىء » ، قال ذلك عن بعوضة تالئة طائرة طليقة في عنبر به الرجال تموت ! كان هذا في اليوم الثالث عشر من سبتمبر

لديه — بعوضة تكون عضت لا مريضاً واحداً بل عدة من المرضى ، ومن مرضى في أسواء حال من حماهم . وفي السابع والعشرين من أغسطس أخرج لازار بعوضة حبها أخطر ما عنده ، فقد كانت شربت من دماء أربعة من مرضى الحمى الصفراء كان من بينهم اثنان في أسوأ حال . وحطت هذه البعوضة على ذراع كارول .

ونظر إليها الجندي كارول وهي تنجس بمقراصها تنخير للقرص مكاناً من جلده . فما الذي دار في خلدته وهو يرقبها تنتفخ كالكرة مما تشرب من دمه ؟ لا أدري ولا أحد يدري ، ولكني أحسبه يدور في فكره حقيقة يبرفها كل أحد : « أنا الآن في السادسة والأربعين ، وفي الحمى الصفراء كلما زادت السن قل الرجاء في الشفاء » . وكان في سنه السادسة والأربعين ، وكانت له امرأة وخمسة أولاد ، ومع هذا فقد كتب في هذا المساء إلى ريد يقول : « إذا كانت نظرية البعوض صائبة وجب أن يكون حظي من الداء وفيراً » . وفعلًا قد كان حظه منه وفيراً

فبعد يومين أحس بالتعب ورغب عن عيادة الرضى في عنبرهم ، وبعد يومين آخرين أحس أنه مريض ، وخال أن عنده حمى الملاريا ، فنهض بنفسه على رجله وذهب إلى معمله وغص دمه تحت المجهر فلم يجد به مما خال أن رأى . ولما خيم الليل ضرب في عينية الدم ، واحمر وجهه واقم ، وفي الصباح حمله لازار إلى عنبر الحمى الصفراء ، وبقي هناك أياماً طويلة وإلى جنبه الموت ... ومات به دقيقة أحس فيها كأن قلبه سكت فلم ينبض ... وتلك دقيقة أعقبته سوءاً ستعلمه بعد حين . وظل بعد شفائه بعد تلك الأيام التي قضاه مريضاً بالمستشفى أعيد أيامه . قال : « أنا أول رجل أصابته الحمى الصفراء في أول تجربة من عضه بعوضة متممة »

وعاني مثل حظ كارول جندي يدعى « س . ص » ، أسماء هذا الاسم هؤلاء البحاث الذين خرجوا على القانون فتستروا في ظلام الكتمان ، وكان اسمه الحقيقي وليم دين William Dean ومسكنه جراند رابيدز Grand Rapids ميشيجان Michigan (١) . فهذا عضته أربع بعوضات وكارول في أول مرضه ، إحداها